

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 4 (2009) : 287 - 301
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

المنهج العلمي عند الإمام الذهبي (673- 748هـ) من خلال كتابيه: ميزان الاعتدال و سير أعلام النبلاء

أ/ أحمد أولاد سعيد – قسم الأدب العربي – المركز الجامعي – غرداية

يمثل شمس الدين الذهبي أنموذجا للباحث المسلم الذي جسد في مصنفاته قواعد منهج البحث العلمي كما تشرطها المناهج الحديثة ليسبق زمانه بنحو ستة قرون. وتهدف هذه المداخلة إلى كشف جهوده – رحمه الله – في دعم مسيرة البحث العلمي بما وقر في نفسه من أسس منهج البحث العلمي التي قررها القرآن والسنة(1). ولما كان علم التراجم – عبر العالم – قد تخبطته المجاملات والمبالغات التي قذفت به إلى الخرافة من جهة، ومن جهة ثانية بقيت بعض التراجم أسيرة الآراء المتشددة الجارحة بغير وجه حق(2)، في هذه الظروف شق الإمام الذهبي منهجا وسطا في تراجمه يقوم على البراهين والتوثق من النقد الموجه إلى الرجال سواء في سياق التراجم الحديثية أم التاريخية، كما قفز بعلم التراجم إلى انتهاج الشمول الزماني والمكاني، وغير ذلك من وجوه التجديد الذي طلع به الذهبي على الناس. غير أن تفصيل القول في سمات المنهج العلمي عند الإمام الذهبي وأثره في علم التراجم يستدعي الاطلاع على البيئة التي نشأ بها الذهبي ومسيرته العلمية.

ترجمة الذهبي:(3) هو شمس الدين أبو عبد الله مُحَّد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، من أسرة تركمانية الأصل تنتهي بالولاء إلى بني تميم. غلب عليه لقب الذهبي لاشتغال أبيه بصناعة الذهب (لأجل هذا كان عالمنا يقيد اسمه أحيانا: ابن الذهبي). ولئن لم يكن أجداده من الراسخين في العلم فإن محيطه العائلي كان حسن العلائق مع العلم والدين: فمرضعته وأخوه من الرضاع وخاله كانوا ذوي إجازات علمية في علوم القرآن ورواية الحديث

وغيرها.

وبدمشق نشا شمس الدين الذهبي شافعيا متأثرا بالمذهب الحنبلي يميل إلى مدرسة الأثر والسلف. وبعد أن حفظ القرآن شرع في الثامنة عشرة من عمره يطلب علم القراءات، ولم يبلغ العشرين حتى صار مجازا في القراءات السبع المتواترة، بل تنازل له شيخه شمس الدين الدمياطي (ت 693 هـ) عن حلقته بالمسجد الأموي لما رأى من نبوغه. وفي سن الثامنة عشرة –أيضا– بدأ الذهبي يعتني بعلوم الحديث، يجلس لشيوخه وشيخاته. ونستطيع أن نتلمس نهم الذهبي إلى علم الحديث وشغفه به من خلال ثلاثة مظاهر:

1– سماعه الحديث حتى ممن لا يُرضيه خُلقه: نموذج ذلك قوله – لما ترجم لعلاء الدين علي ابن المظفر(ت 716 هـ) – : "... ولم يكن على ضوء في دينه، حملني الشره على السماع منه..." [4].

2– رحلته طلبا للحديث رغم ممانعة والده – رحمه الله – (لعل من أسباب هذه الممانعة كونه وحيد أبيه – على الراجح – إضافة إلى حداثة سن الذهبي، فقد أذن له الوالد في الرحلة لما بلغ العشرين)، فرحل – في الشام– إلى بعلبك وحلب، ثم إلى مصر والحجاز.

3– كثرة مصنفاته في علوم الحديث حتى فاقت المائة في نقد الرجال، واختصار الكتب النافعة، وغيرها.

يضاف إلى مهارة الذهبي بالقرآن والحديث إحاطته بالتاريخ ومهارته باللغة. والكلام عن الذهبي المؤرخ يعني غزارة المادة العلمية والثقة بها. وبعد قرابة سبعة قرون من وفاة الإمام الذهبي (ت 748 هـ) فمن النادر أن تجد استدراكات تاريخية أو انتقادات علمية تمس كتبه. أما اللغة فهي قوية في غير غرابة، تذهب سأم بعض التراجم المطولة أحيانا كما في كتابه: "سير أعلام النبلاء". للذهبي شعر قليل قوله:

الفقـــه قـــال الله قـــال رســـولُه ... إنْ صـــح والإجمـــاع فاجهـــد فيـــه

وحـذار مـن نصـب الخـلاف جهالـة ... بـــين النـــبي و بـــين رأي فقيـــه

لقد كان اكتساب هذه العلوم وغيرها شاقا في بيئة دمشقية متلاطمة: فسياسيا لم يكن قد مضى على إجلاء المغول وفتنتهم غير زمن يسير، ثم بسط المماليك سلطانهم على

دمشق، وبطبعهم العسكري لم يكن لهم –بوجه عام– باع كبير في العلوم، ما لم يُسهم في ترقية البحوث العلمية لولا الجهد الخاص للعلماء العاملين. أما عقديا فقد عرفت دمشق في هذه الفترة نزاعا متعصبا بين الحنابلة والأشاعرة. وزاد الاعتقاد بالخوارق والخرافات الأمر سوء وطعن بشكل واضح في التفكير العلمي ومنهجية البحث السليمة.

غير أن الهمة العلمية لشمس الدين الذهبي وقوته النفسية تغلبتا على هذه المنغصات، وأعانه على ذلك طائفة من العلماء أضاءوا دمشق في تلك الظروف المضطرمة التي سقتها؛ وكان من هؤلاء الأعلام: أمين الدين بن عساكر(ت 686 هـ)، ابن تيمية (ت 728 هـ)، الفاضلي (إبراهيم بن داود العسقلاني، ت692 هـ) شيخه في الحديث، وغيرهم. وعندما تجتمع الهمة ومنهج البحث إلى مؤازرة هؤلاء الأعلام يبدع لنا الذهبي عشرات المصنفات النافعة تبلغ العشرين ومائة (120)، لعل أهمها:

1. ميزان الاعتدال في نقد الرجال.
2. تذكرة الحفاظ.
3. المستدرك على مستدرك الحاكم.
4. الموقظة في علم مصطلح الحديث.
5. الرسالة الذهبية إلى ابن تيمية.
6. الكبائر.
7. مسألة خبر الواحد.
8. المستحلى في اختصار ا لمى
9. تاريخ الإسلام.
10. سير أعلام النبلاء.

وكان من أبرز تلاميذ الذهبي: تاج الدين السبكي (ت 771 هـ)، ابن رجب (ت)، ابن كثير الدمشقي(ت 774 هـ) و غيرهم كثير.

والخلاصة أن الذهبي محدث، مؤرخ، ناقد، عالم بالقراءات واللغة، صدع بالحق في تراجمه وسط اضطرابات فكرية تُبين قوته الروحية الإيمانية التي ضبطها المنهج العلمي. هذا

الحكم تصدقه مصنفاته الكثيرين يضاف إليها شهادات العلماء له بالتفوق والنبوغ:

1- فقد قال عنه تلميذه السبكي: " ...و كأنما جُمعت الأمة في صعيد واحد فنظرها ثم أخذ يعبر عنها إخبارَ مَن حضرها"[5].

2- وشرب ابن حجر العسقلاني (ت 852 هـ) ماء زمزم سائلا الله أن يصل إلى مرتبة الذهبي في الحفظ و فطنته[6].

ركائز المنهج العلمي عند الإمام الذهبي: إن الروح العلمية – كما تعرف اليوم[7] – سمة بارزة في مؤلفات الذهبي كلها. ولا يسع المطالع لسائر مصنفاته إلا الشهادة له بالرسوخ في احترام قواعد البحث العلمي وخطواته المنهجية كالدقة، الحياد العلمي، النقد وغيرها كما سيتبين. ومن خلال رصد مسيرة الذهبي العلمية وملاحظة مدوناته تبين لي أن الركائز التي صنعت الفكر المنهجي لديه أربع: فالركيزة الأولى هي إتقان الذهبي القراءات القرآنية قبل العشرين من عمره، وكان من أثر ذلك فائدتان: الأولى: لا تنفك آي القرآن الكريم تحض على شروط المنهج العلمي: مثال ذلك ما في سورة يونس حيث نجد: أ- تحريم الكذب (وهو جريمة في البحث العلمي وتزوير لا تحمد عواقبه): ((بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه و لم يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فكيف كان عاقبة الظالمين)) يونس: 39. ب- التحذير من إتباع الظن: ((و ما يتبع أكثرهم إلا ظنا إن الظن لا يغني من الحق شيئا إن الله عليم بما يفعلون)) يونس: 36. ج- الدعوة إلى التجريب:((أم يقولون افتراه قل فاتوا بسورة مثله و ادعوا من استطعتم من دونه إن كنتم صادقين)) يونس: 38. فهذه الآية – وإن كان ظاهرها تحدي الباطل لإسقاطه – فإنها تتضمن طلب الدليل المجرَّب ((فاتوا بسورة مثله)) والتجريب خطوة بارزة في المنهج العلمي. الفائدة الثانية: أثر علم القراءات: حيث يرسي هذا العلم الدقة العلمية إلى أبعد الحدود بالنظر إلى شرف القرآن الكريم الذي يتناوله هذا العلم، إضافة إلى تفاصيله الدقيقة التي لم يتقنها إلا قليل من العلماء عبر التاريخ الإسلامي. الركيزة الثانية: تخصص الإمام الذهبي في علوم الحديث: فقد مال إليها منذ الثامنة عشرة، و قضى فيها نحو ستين سنة، مؤلفا أزيد من عشرين ومائة (120) كتاب ورسالة. وغير خافٍ ما يمليه علم الحديث على الباحث من مناهج علمية أبرزها: الدقة العلمية، الحق أولى بالإتباع، نبذ

التقليد، التعصب وردة الفعل، الرحلة لملاقاة الرواة (تتضمن خطوة التجربة كمنهج علمي) و غير ذلك. الركيزة الثالثة: تمكن الإمام الذهبي من قواعد اللغة العربية نحوا وصرفا يرسخ في النفس الانضباط العلمي والابتعاد عن العشوائية والظنون. الركيزة الرابعة: أدرك الذهبي فترة زمنية ذهبية: فمن جهة اجتمع إليه علم المتقدمين من أهل الحديث، الكلام، أصول الفقه وسواها. (وكان من أواخر هؤلاء الأعلام ابن الصلاح (ت642 ه) والنووي (ت 676 ه) وغيرهما، وفي مناهجهم نقد علمي وتحقيق دقيق لا ينكره إلا مكابر، فأفاد منه الذهبي و أضاف إليه الكثير). ومن جهة أخرى عاصر الإمام الذهبي الجهابذة من أمثال ابن تيمية (ت 728 ه) الناقد لانحرافات الفلسفة والتصوف، وأبي الحجاج المزي (ت 744 ه) الماهر بالجرح والتعديل، وغيرهما.

منهج الذهبي العلمي من خلال كتابه: " ميزان الاعتدال": وصف الكتاب: ألف الذهبي كتابه هذا في الضعفاء المجروحين من رواة الحديث النبوي، ولكنه ضم عددا من الثقات ذكرهم – كما قال – :"...للذب عنهم أو لأن الكلام غير مؤثر فيهم"[8]. ثم رتب الرواة على حروف المعجم، فخرج الكتاب في ثمانية أقسام: الأول: التراجم العامة للرجال و النساء، على حروف المعجم. القسم الثاني: باب الكنى (المبدوء بكلمة "أبو"). القسم الثالث: باب من عُرف بأبيه (المبدوء بكلمة "ابن"). القسم الرابع: فصل الأنساب. القسم الخامس: الرجال المجهولين. القسم السادس: النساء المجهولات. القسم السابع: كنى النساء. القسم الثامن: مَن لم تُسمَّ (المبدوء بكلمة "والدة"). والكتاب في عشرة (10) مجلدات، من أفضل تحقيقاته ما قام به علي مُحَّد البجاوي سنة 1963.

منهج الذهبي العلمي من خلال هذا الكتاب: يتجلى ذلك من خلال تمسكه بصفات عديدة هي اليوم أركان في البحث العلمي، منها: الدقة العلمية، الإنصاف وإتباع الحق.

أولا: الدقة العلمية. من أماراتها:

1. تخصص بحثه في الضعفاء حتى صار مرجعا – لا غنى عنه إلى اليوم– في تخريج سند الأحاديث.

2. ترتيب رواته على حروف المعجم.

3. بيّن مراتب الجرح والطعن على الرواة ليبعد قراءه من ورطة الإفراط أو التفريط. فقال: "... فأعلى العبارات في الرواة المقبولين: ثبْتٌ حجة، و ثبْتٌ حافظ، وثقة مُتقن، وثقة ثقة، ثم ثقة صدوق، ثم لا بأس به، وليس به باس، ثم محله الصدق، وجيد الحديث، وصالح الحديث، وشيخ وسط، وشيخ حسن الحديث، وصدوق إن شاء الله، وصويلح، ونحو ذلك"[9] ا.هـ. قلت: وفي الجرح تفصيل أدق وتصنيف يصل إلى ثمانية وعشرين درجة يكشف الضعفاء والوضاعين، قال في هذا الصدد: "... وأردى عبارات الجرح: دجال كذاب، أو وضاع يصنع الحديث، ثم متهم بالكذب، ومتفق على تركه، ثم متروك ليس بثقة، سكتوا عنه، ذاهب الحديث، وفيه نظر، وهالك، وساقط، ثم واهٍ بمرة، وليس بشيء، ضعيف جدا، وضعفوه، ضعيف وواه، ثم يضعَّف، وفيه ضعف، وقد ضُعف، ليس بالقوي، ليس بحجة، ليس بذاك، يُعرف ويُنكر، فيه مقال، تُكلم فيه، لين، سيئ الحفظ، لا يُحتج به، اختُلف فيه، صدوق لكنه مبتدع..." [10].

4. لم يستسلم لتجريح المتأخرين بل أخضعه للنقد، وربما لم يورده في كتابه هذا[11]. والذهبي من أوائل من ضبط نهاية القرن الرابع الهجري فاصلا بين المتقدمين والمتأخرين، قال: " ...فالحد الفاصل بين المتقدم والمتأخر هو رأس سنة ثلاثمائة..." [12].

5. ومن تكلم فيه المتقدمون – ولو بأقل تليين وأخف تجريح – ذكره في ميزان الاعتدال، ولكنه يعلق على هذا بأنه لا يضر المرء – متى كان ثقة – إنما السوء في الكذب والإصرار على الخطئ، والجرأة في تدليس الباطل[13].

6. و من دقته بيان منهجه "في من قال فيه مجهول"، فإن قال في راو " مجهول" دون عزو فهو قول أبي حاتم الرازي(ت 327 هـ) فيه، أما ما قال عنه: " فيه جهالة، يجهل، أو لا يُعرف" ولم يعزه فذلك قوله هو(الذهبي) فيهح وكذلك وصفه الراوي بكونه ثقة، أو صدوقا، دون عزو فهو من قِبَله[14].

ثانيا: الإنصاف و إتباع الحق: من دلائل ذلك:

1. لم يكن تمسكه بمذهب السلف دافعا إلى رفض روايات الشيعة الذين ثبت صدقهم و لم يكونوا دعاة إلى بدعتهم؛ مثال ذلك قوله ترجمة أبان بن تغلب: " ...أبان بن تغلب الكوفي: شيعي جلد، لكنه صدوق، فلنا صدقه و عليه بدعته..." ا.هـ. ثم بيّن أن تشيعه لم يبلغ حد الرفض الكامل(الطعن على الشيخين أبي بكر وعمر، والدعوة إلى هذا). ولم يكن أبان ممن يعرض للشيخين أصلا، و لذلك روى له الإمام مسلم كما رمز له الذهبي[15]. قلت: وماذا لو أن أبانا هذا رفضت مروياته لتشيعه(محبته لعلي) بلا غلو؟ إذا لضاعت آثار كثيرة بغير وجه حق. هنا ينبري الذهبي بنظريته المنهجية التي تطلب صدق الراوي وضبطه لتحفظ الحديث النبوي. هذا والذهبي متعصب لمذهبه السلفي حتى يحرمه ذلك من تولي رئاسة الدار الأشرفية للحديث بدمشق، وهو منصب علمي واجتماعي رفيع، لأن السلاطين المماليك كانوا يولون فيها مَن كان أشعريا مسايرة لمذهب أكثر الناس[16]. إن الروح العلمية لجديرة بالاحترام في زمن يصنف في دائرة الضعف والانحطاط.

2. ولكن الذهبي وقاف عند الحق لا يجامل فيه: فقد تكلم – من قبل – في ابنه أبي هريرة عبد الرحمان قائلا: " إنه حفظ القرآن ثم تشاغل عنه حتى نسيه"[17]. وخالف شيوخه كابن تيمية وغيره (ومنزلة الشيوخ عظيمة عند الذهبي وأقرانه) [18].

3. وإذا استحق الراوي الاطراح بإجماع النقاد أقر الذهبي ذلك كما في كثير من صفحات "ميزان الاعتدال"، من ذلك قوله في أبان بن جبلة: "أبان بن جبلة الكوفي، أبو عبد الرحمان: روى عن أبي إسحاق السبيعي. ضعفه الدارقطني وغيره، و قال البخاري منكر الحديث. ونقل ابن القطان أن البخاري قال: كل مَن قلتُ فيه منكر الحديث فلا تحل الرواية عنه"[19]. ووصف راو آخر بأنه دجال[20]، و قال في إسحاق بن مُحَمَّد الأحمر: "... ولم يذكره في الضعفاء أئمة الجرح في كتبهم، و أحسنوا، فإن هذا زنديق"[21].

قلت: و بالجملة فإن شمس الدين الذهبي كان معتدلا في ميزانه، مدققا محققا، يقول الحق لا يحجزه عنه وقار مَن سبق أو مخالفة المذهب.

منهج الذهبي العلمي من خلال كتابه " سير أعلام النبلاء": وصف الكتاب: تداول العلماء هذا الكتاب بأسماء متقاربة: "سير النبلاء"، "أعيان النبلاء"، "تاريخ النبلاء"، "تاريخ

العلماء النبلاء"، و غيرها. ألفه الذهبي بعد كتابه الكبير "تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام"، و ليس "سير أعلام النبلاء" اختصارا لتاريخ الإسلام، ولكنه يحيل عليه بخاصة في الكلام عن السيرة النبوية. و"سير أعلام النبلاء" في خمسة وعشرين(25) مجلدا، أشرف على تحقيقه شعيب الأرنؤوط.

أما موضوع الكتاب فالترجمة للأعلام من أول الإسلام إلى فراغه من تأليف الكتاب(739 هـ)، وقصد بالأعلام مَن كان مشهورا جدا بحسب عُرف هو في زمانه. وفي الكتاب عناية خاصة با لمدثين، ولكنه أورد سائر الأعلام في صنوف العلوم والحُكم والنِّحل وغيرهم، فزاد عدد تراجمه على خمسة آلاف(5000) ترجمة، رتبها على أربعين(40) طبقة، تشمل سبعة(7) قرون من شرق العالم الإسلامي إلى غربه. و الذهبي يقصد بالطبقة "...القوم المشابهين من حيث اللقاء، أي في الشيوخ الذين أخذ عنهم، ثم تقاربهم في السن من حيث المولد والوفاة تقاربا لا يتناقض مع اللقيا..." [22].

يضاف إلى هذا الشمول أهمية أخرى هي عناية الذهبي بإيراد العلوم التي برز فيها أعلامه الذين ترجم لهم، والأحاديث التي رووها معروضة على ميزان النقد، وإن كان العلَم حاكما أو قائدا ذكر إنجازاته وما يرتبط بها من تاريخ الإسلام.

منهج الذهبي العلمي من خلال هذا الكتاب: هنا أيضا نجد سمات منهج البحث العلمي واضحة في سائر تراجم الكتاب، سواء تعلق الأمر بالنقد العلمي، الحياد والموضوعية، وغيرها من المواصفات المنهجية.

أولا: النقد العلمي: استعمل الذهبي منهج النقد الحديثي في كتابه "سير أعلام النبلاء"، سواء تعلق الأمر بالأعلام و أحوالهم في الصدق و الضبط، أم المرويات النبوية وغيرها، أم سير الحكام إبان مراحل التاريخ الإسلامي، كما نبه إلى الأخطاء التاريخية وإفراط المؤرخين وتفريطهم.

(أ) فمن نماذج نقده للأعلام قوله في الترجمة رقم 111: " الكلبي: العلامة الأخباري أبو النضر مُحَمَّد بن السائب بن بشير الكلبي المفسر، وكان أيضا رأسا في الأنساب، إلا أنه شيعي متروك"[23]. وقال الترجمة رقم 94 " أبو مخنف: لوط بن يحيى الكوفي، صاحب

تصانيف وتواريخ..." ثم قال فيه: " قال يحيى بن معين: ليس بثقة، وقال أبو حاتم: متروك، وقال الدارقطني: أخباري ضعيف"[24]. فلم يشفع علم هذين الرجلين وتصانيفهما لما جرحهما الأعلام من النقاد، وإنما أوردهما الذهبي في كتابه لأنهما وافقا قاعدته في ذكر الأعلام من مرتبتهما. وفي أحكام التعديل قال في الترجمة رقم **81**: "قيس بن أبي حازم: العالم الثقة الحافظ أبو عبد الله البجلي الأحمسي الكوفي...قال أبو داود: أجود التابعين إسنادا قيس..." [25]. وفي ترجمة عدي بن ثابت (الترجمة رقم **68**) قال الذهبي: "الإمام الحافظ الأنصاري الكوفي... قال أحمد بن حنبل والعجلي: ثقة، وتبعهما النسائي، وقال أبو حاتم: صدوق، كان إمام مسجد الشيعة وقاصّهم"[26].

وعارض بعض معاصري الذهبي إخضاع التراجم التاريخية العامة لمنهج النقد الحديثي، بحجة زوال الحاجة إلى الجرح والنقد لاستقرار في مظانها منذ مطلع القرن الرابع الهجري، بل إن بعض المعارضين عدوا هذا النهج من الذهبي غيبة[27]، وزاد آخرون فعدوا هذا من تشدد المؤرخين المسلمين الذين عاملوا الناس جميعا معاملة نقلة العلم النبوي، وهو مخالف لواقع الناس. ويجاب على هذه الاعتراضات بردود[28]: الأول: أما انعدام الحاجة إلى النقد الحديثي بعد القرن الرابع فغير مسلم: فمع الإقرار أن عمل المتقدمين من النقاد موقر، إلا أنه يبقى جهدا بشريا قد يعتريه النقص فلا يمنع الاجتهاد. هذا من جهة، ومن جهة ثانية فقد ظهرت مجاميع حديثية أخرى تفتقر إلى عمل نقدي أكبر، وإذا أضفنا إلى هذا المنهج التاريخي النقدي الذي صار ملازما للإمام الذهبي يتضح سبب تمسكه بهذه الروح النقدية. الرد الثاني: لكن هذا لا يعني أن الذهبي عامل الناس جميعا معاملة الرواة فقد أورد في السير تراجم للمجروحين و قليلي التدين أحيانا، و ربما مدح مجروحا في عدالته لمهارته العلمية، كما فعل عندما ترجم لصدقة بن الحسين الحداد حيث قال:" العلامة... الفرضي المتكلم المتهم في دينه"[29]. ومثل هذا تكرر في كتابه التزاما بخطته في ذكر الأعلام. وهو إن تكلم عن حاكم أو وزير"... نظر إليه من زاوية الحزم والدهاء، والقوة والضعف، والسياسة، والظلم والعدل، وحب العلم والعلماء ونحوها..." [30]، فكتاب " سير أعلام النبلاء" ليس مصنفا في الثقات.

(ب) ومثال المرويات التي نظر فيها الذهبي بنقده قوله في الحديث المرفوع إلى النبي –

صلى الله عليه و سلم – لما دفن سعد بن معاذ: ((تَضايَقَ على صاحبكم القبر وضُم ضَمة لو نجا منها أحد لنجا هو، ثم فرج الله عنه)) [31]. قال الذهبي: "قلت: هذه الضمة ليست من عذاب القبر في شئ، بل هو أمر يجده المؤمن كما يجد ألم فقد ولده وحميمه في الدنيا، وكما يجد من مرضه..." [32]. وفي ترجمة أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – قال – بعد أن أورد السند – "دخل عيينة بن حصن على رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وعنده عائشة، وذلك قبل أن يضرب الحجاب، فقال: مَن هذه الحميراء يا رسول الله...الحديث". رد الذهبي هذا الحديث بكونه مرسلا، ويزيد – أحد الرواة – متروك، وما أسلم عيينة إلا بعد نزول الحجاب..." [33].

(ج) ومن تنبيهاته على وهم الرواة والمؤرخين نقده للحديث المروي عن عائشة موقوفا، فيه أن مال أبيها كان في الجاهلية ألف ألف أوقية من الفضة. فرد الذهبي هذا الوهم من الرواة (أو النساخ)، واعتبر كلمة "ألف" الثانية زائدة مبرهنا بأن ألف أوقية تساوي أربعين ألف درهما، وهذا المبلغ وحده مفخرة لتاجر وأهله، أما مليون (ألف ألف) أوقية فلا تجتمع إلا لسلطان كبير[34].

ثانيا: الحياد العلمي: يعتبر كتاب "سير أعلام النبلاء" من أوائل كتب التراجم التي شملت شرق العالم الإسلامي وغربه، ومختلف الأعلام من الفرق والمذاهب الفقهية، ملتزما الحياد العلمي في ذكر كل مَن يوافق خطته من الأعلام، في رد واضح على من اتهمه بالتعصب لمذهبه السلفي أو ميوله الحنبلية.

(أ) شموله بقاع العالم الإسلامي: كانت كتب التراجم –المؤلفة في المشرق قبل الذهبي– مقصرة في أعلام المغرب والأندلس، فلما صنف الذهبي السير حفظ أخبار أهل الغرب الإسلامي وما يرتبط بهم من مرويات وفتوح وعلوم. من نماذج ذلك كلامه عن ابن عبد البر (يوسف، ت 463 هـ) حيث قال: "العلامة حافظ المغرب شيخ الإسلام أبو عمر يوسف بن عبد الله بن مُحَمَّد بن عبد البر بن عاصم النمري الأندلسي القرطبي المالكي صاحب التصانيف..." ثم قال: "... وأدرك الكبار وطال عمره وعلا سنده وتكاثر عليه الطلبة وجمع وصنف ووثق وضعف وسارت بتصانيفه الركبان وخضع لعلمه علماء الزمان..." [35]. وما

دونه الذهبي عن ابن عبد البر في أزيد من خمس صفحات قد حفظ أيضا مرويات وعلوما شرعية وغيرها، كما وثق مرحلة مهمة من حياة الفقهاء الأندلسيين، وعلاقات ابن عبد البر بابن حزم الظاهري (ت451 هـ)، كل ذلك بأسانيد محققة تبعد هذه المرحلة العلمية من تاريخ الأندلس عن تأويلات الطاعنين من المستشرقين و غيرهم[36]. ولم يتوقف اهتمام الذهبي برواد الحركة الفقهية وحسب بل اعتنى بحكام المغرب وقادته، فكتب عن أمير الدولة المرابطية يوسف بن تاشفين (ت500 هـ) قائلا: "صاحب المغرب أمير المسلمين السلطان أبو يعقوب يوسف بن تاشفين اللمتوني البربري الملثم ويعرف أيضا بأمير المرابطين وهو الذي بنى مراكش وصيرها دار ملكه..." ثم قال: "وكثرت جيوشه وخافته الملوك، وكان بربريا قحا، وثارت الفرنج بالأندلس فعبر ابن تاشفين ينجد الإسلام فطحن العدو..." [37]. وفي ما عدا كتاب السير للذهبي فمن النادر العثور على أخبار ابن تاشفين وتفاصيل إنجازاته العسكرية والعلمية في الكتب السابقة للذهبي.

(ب) حياده مع المخالفين في العقيدة أو المذهب: كتاب السير مشحون بذكر المخالفين من الشيعة[38]، المتصوفة، فقهاء المالكية والحنفية وغيرهم. يذكر كل واحد بعلمه وجهده، ويتفاوتون عنده بمقدارهم عند أغلب العلماء من داخل هذه الفرق والمذاهب المخالفة لنهجه السلفي ومذهبه الشافعي ذي الميول الحنبلية. فمن نماذج هذا ترجمته لأبي جعفر الطحاوي الحنفي (ت321 هـ): "الإمام العلامة الحافظ الكبير محدث الديار المصرية وفقيهها أبو جعفر أحمد بن مُحَمَّد بن سلامة بن سلمة بن عبد الملك الأزدي الحجري المصري الطحاوي الحنفي صاحب التصانيف". ثم قال مزكيا: "ذكره أبو سعيد بن يونس فقال وكان ثقة ثبتا فقيها عاقلا لم يخلف مثله"[39]. ثم ساق طائفة من مروياته وآرائه الفقهية. وترجم لإمام الحنفية المرغيناني (علي، ت 593): "العلامة عالم ما وراء النهر برهان الدين أبو الحسن بن علي بن أبي بكر بن عبد الجليل المرغيناني الحنفي صاحب كتابي الهداية والبداية في المذهب... وكان من أوعية العلم رحمه الله..." [40]. وأما المالكية فقد مضى كلامه الجيد في إمامهم بالمغرب ابن عبد البر وغيره فأين التعصب للعقيدة والمذهب؟ نعم قد يرى لرجل كالإمام أحمد فضلا فيترجم له في أزيد من مئة (100) صفحة لفضائل رآها جديرة بالتنويه أو علم ومرويات رام

الإعلام بها، ولكنه لم يهمل أعلام المذاهب الأخرى بما وقر في نفسه من فضلها و علمها كما مضى في النماذج المسوقة آنفا.

الذهبي ومنهج البحث النقدي التاريخي عند الأوروبيين: من الراجح أن جهود شمس الدين الذهبي قد تركت أثرها في منهج النقد التاريخي، يشاركه في هذا التأثير سائر نقاد الأحاديث والأخبار الإسلامية. يقول د. عثمان موافي (أستاذ النقد الأدبي بجامعة الإسكندرية): "... ومهما يكن من أمر فنقد العدالة والضبط ليس إلا نقد الأمانة والدقة عند أصحاب النقد التاريخي الأوربي، فنقد الأمانة عندهم يقابل نقد العدالة عند المسلمين، أم نقد الدقة عندهم فيقابل عند المسلمين نقد الضبط..." [41]. قلت: ولا أشك في أثر جهود الذهبي في مناهج البحث الحديثة، بخاصة في علم التراجم، فقد كان بعض المترجمين الأوربيين غارقين في المبالغات إلى حد الخرافة أحيانا حتى صور بعضهم الإسكندر المقدوني مخلوقا أسطوريا له جسد إنسان ورأس أسد! فكيف حدثت هذه القفزة التي تُعرف اليوم في مراجع التراجم الأوربية والدقة التي تتسم بها والنقد الذي يشملها لولا آثار التحقيق الإسلامي؟

واليوم يجتهد منظرو منهج النقد التاريخي في محاصرة الكذب باعتباره آفة في البحث التاريخي وعلم التراجم، حتى بينوا أسباب الكذب فكان أهمها: المنفعة الشخصية وحظوظ النفس، العطف على طائفة أو كراهيتها، تملق الجماهير...الخ[42]. وهنا طبعا كان الذهبي سباقا إلى التحذير من الكذب وخطره حتى ألف "ديوان الضعفاء والمتروكين" و "ميزان الاعتدال" وغيرهما ينفي عن آثار النبي وأخبار الإسلام انتحال الكذابين. ووجدناه يبين مراتب الكذب فيصف بالدجال، ودجال كذاب، أو وضاع يصنع الحديث، ومتهم بالكذب، ومتفق على تركه، ومتروك ليس بثقة، وغير ذلك[43].

الخاتمة: إن الحديث عن شمس الدين الذهبي واسع سعة مصنفاته التي أربت عن المائة، وكلها مصبوغة بمهج علمي دقيق لا يشتط متشددا ولا يجامل في الحق ولا كان مع ذي القربى والشيوخ. وهو بعد متنزه عن الهوى و التعصب لمذهب أو جهة من الأرض كما برهنا عليه بالرغم من كونه حيي في زمن يوصف بالضعف ووسط ميول إلى انحرافات فكرية وصراعات مذهبية كبيرة أحيانا. ولا ريب أن نشأة الذهبي العلمية للإمام الذهبي لجديرة بالتنويه لأنها

أخرجت لنا هذا الألمعي، بخاصة اهتمامه بالقراءات وعلم مصطلح الحديث، يضاف إلى هذا شرهه هو إلى التعلم حتى سمع ممن رق دينه وقرأ على من كان ذا صمم من العلماء ليجيزه.

التوصيات: إن حاجة العلوم الإسلامية والإنسانية عامة إلى قواعد مضبوطة في البحث العلمي المعاصر لتدعو إلى الاستمداد من مصنفات الإمام الذهبي واجتهاداته في هذا الشأن. ولهذا فإن هذا المقال يوصي بما يلي:

1- تقرير كتاب "ميزان الاعتدال في نقد الرجال "في مقياس مناهج البحث ضمن الكتب المقررة، وإلزام الباحثين بمقارنة تراجمهم بما في كتاب "سير أعلام النبلاء" وقاية من الزلل الذي وقع فيه بعض أصحاب التراجم الأخرى.

2- تشجيع البحث حول مؤلفات الذهبي خاصة الفقهية والعقدية فهي عامرة بذكاء الرجل ا قق.

الهوامش:

1- من هذه الأسس ما في سورة يونس نفسها حيث نعثر على استبعاد الظن ((و ما يتبع أكثرهم إلا ظنا إن الظن لا يغني من الحق شيئا إن الله عليم بما يفعلون)) يونس: 36. الدعوة إلى التجريب: ((أم يقولون افتراه قل فاتوا بسورة مثله و ادعوا من استطعتم من دونه إن كنتم صادقين)) يونس: 38. فهذه الآية – و إن كان ظاهرها تحدي الباطل لإسقاطه – فإنها تتضمن طلب الدليل المجرَّب ((فاتوا بسورة مثله)) والتجريب خطوة بارزة في المنهج العلمي,.تحريم الكذب (وهو جريمة في البحث العلمي وتزوير لا تحمد عواقبه): ((بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه و لم يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فكيف كان عاقبة الظالمين)) يونس: 39, و هذه النصوص تؤكد على منهج البحث العلمي في الإسلام استقرائي، يقوم على أمانة النقل، دقة التعبير و حسن السند, و التزام المنهج العلمي فرض كفاية في العلوم التجريبية والدراسات الاجتماعية كما يرى د, غمق ضو(جامعة بنغازي) مستدلا بنصوص قرآنية كثيرة، ويعد الغزالي في " تهافت الفلاسفة"، وابن تيمية في " نقض المنطق" من أحسن من جسد هذا المنهج,

2- ربما أضاع تشدد بعض النقاد مرويات كثيرة كما نبه الذهبي في مقدمة كتابه " ميزان الاعتدال" كما سيأتي.

3- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد الحنبلي، ط2 منقحة، دار المسيرة، بيروت، 1979: 153/6.

4- مقدمة د, بشار عواد معروف لكتاب " سير أعلام النبلاء".

5- مقدمة د, بشار عواد معروف لكتاب " سير أعلام النبلاء".

6- مقدمة د, بشار عواد معروف لكتاب " سير أعلام النبلاء".

7- أصول البحث العلمي، ثريا عبد الفتاح ملحس، ص 67 و 68.

8- مقدمة كتاب " ميزان الاعتدال",

9- مقدمة كتاب " ميزان الاعتدال",

10-مقدمة كتاب " ميزان الاعتدال",

11-مقدمة كتاب " ميزان الاعتدال",

12-مقدمة كتاب " ميزان الاعتدال",

13-مقدمة كتاب " ميزان الاعتدال",

14-مقدمة كتاب " ميزان الاعتدال",

15-ميزان الاعتدال:6/1,

16-مقدمة د, بشار عواد معروف لكتاب " سير أعلام النبلاء",

17-مقدمة د, بشار عواد معروف لكتاب " سير أعلام النبلاء",

18-مقدمة د, بشار عواد معروف لكتاب " سير أعلام النبلاء",

19-ميزان الاعتدال: 6/1,

20-المصدر السابق:290/1,

21-نفسه: 290/1 و 291,

22-مقدمة د, بشار عواد معروف لكتاب " سير أعلام النبلاء",

23-سير أعلام النبلاء: 248/6,

24-المصدر السابق: 301/7 و 302,

25-نفسه: 1/ 6.

26-نفسه: 5/1 و 6.

27-طبقات الشافعية، السبكي:

28-الإعلان للسخاوي، ص488.

29-الدرر الكامنة: 61/1.

30-ميزان الاعتدال: 6/1.

31-المصدر السابق: 202/1.

32-نفسه: 196/1 و 197.

33-د. بشار عواد معروف في تقديمه كتاب " سير أعلام النبلاء"، 104/1.

34-سير أعلام النبلاء، ط9، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، 1412 هـ: 248/6.

35-المصدر السابق: 301/7 و 302.

36-نفسه: 199/4.

37-نفسه: 188/5.

38-نفسه: 126/1.

39-جملة هذه الردود نبه إليها د. بشار عواد معروف في تقديمه لكتاب السير: 119/1-122.

40-سير أعلام النبلاء:

41- كلام د. بشار عواد معروف في تقديمه لكتاب السير: 122/1 و 123.

42-قال ا قق: إسناده تالف، لأن مُحَّد بن عمر الواقدي متروك: نفسه: 290/1، هامش 2.

43-نفسه، 290/1.

44-نفسه: 167/2.

45-نفسه: 168/2.

46-نفسه: 152/18 و 153.

47-نفسه: 155/18.

48-نفسه: 252/19 و253.

49-سبق الكلام عن رواة الشيعة في كتابه " ميزان الاعتدال "، ص 5 من هذا المقال.

50-نفسه: 27/15.

51-نفسه: 222/21.